الفصل الأول

معركة فرنسا

وهجوم ١٢٦ فرقة ألمانية عليها

obeikandl.com

obeikandl.com

منذ نشوب الحرب في أيلول عام ١٩٣٩ ، خصص الألمان قوتهم الرئيسية لغزو بولندا ، وكانت تقف على الحدود الغربية الممتدة من أكس - ليشابل إلى حدود سويسرا ، اثنتان وأربعون فرقة ألمانية ، وكانت هذه الحشود خالية من أية فرقة مدرعة ، وكان بوسع فرنسا أن تواجه هذه القوة بنحو من سبعين فرقة ، إلا أنهم لم يفعلوا ذلك وقرروا أنه من المعتذر الهجوم على ألمانيا آنذاك، أما الآن فقد تغير الوضع تمامًا ، فقد اغتنم العدو الفرصة التي منحت له خلال ثمانية أشهر، وبعد أن تمكن من احتلال بولندا عبأ ما يقارب المائة والخمسة والخمسين فرقة من بينها عشر فرق مدرعة ، وقد ساعده في ذلك الاتفاق المعقود بين هتلر وستالين ، والذي مكن هتلر من سحب وتخفيض قواته على الجبهة الشرقية إلى أقل عدد ممكن ، وقد وصف الجنرال هولدر تلك القوات البسيطة المتبقية أمام روسيا بأنها قوة صغيرة تصلح لجمع الضرائب فقط ، وهكذا استطاع هتلر أن يخصص لهجومه الكاسح على فرنسا مائة وست وعشرين فرقة مجهزة بأقوى الأسلحة ، تدعمها ثلاثة آلاف سيارة مصفحة وألف دبابة ثقيلة .

أما فرنسا فقد حشدت مائة وثلاث فرق ، بينها الفرق البريطانية الموجودة في فرنسا ، وإذا تقرر إشراك الجيوش البلجيكية والهولندية فسيزداد العدد بمقدار اثنتين وعشرين فرقة إضافية، ولما كان الهجوم الألماني الذي بدأ في العاشر من أيار عام ١٩٤٠ قد استهدف الجبهات الثلاث مجتمعة، فقد بلغ مجموع القوات الحليفة مائة وخمس وثلاثين فرقة ، أي ما يوازي عدد الفرق الألمانية تقريبًا، ولو كانت هذه القوة الكبيرة منظمة تنظيمًا حسنًا ومدربة تدريبًا تامًا لكان في إمكانها وقف الهجوم الألماني ، إلا أن الجيش الألماني آنذاك أصبح في وضع يمكنه من اختيار الوقت والاتجاه والقوة اللازمة لبدء هجومه ، وكان أكثر من نصف الجيش الفرنسي متمركزًا في القطاعات الجنوبية والشرقية من البلاد ، بينما بقيت إحدى وخمسون فرقة فرنسية بريطانية لتواجه الهجوم الكاسح في الشمال الذي تقوم به نحو من سبعين فرقة ألمانية ، وقد بدأ الألمان هجومهم بزحف الدبابات الحديثة التي لا تخترقها قذائف المدافع والطائرات ، وقد صدرت الأوامر إلى خمس فرق مدرعة وثلاث فرق آلية بعبور الأردين إلى سيدان ومونترمي .

أما الفرنسيون فقد واجهوا هذه الدبابات بدبابات من النوع الخفيف وقد بلغ عددها ألفين وثلاثمائة دبابة، وقد تضمنت فرقهم الآلية المدرعة بعض الأنواع القوية، إلا أن معظم قوتهم المدرعة تلك كانت مجزأة ومتفرقة على عدة جبهات، أما بريطانيا التي كانت أول من اخترع الدبابة فقد أكملت تدريب أول فرقة مدرعة لها قبل أيام من بدء الهجوم، ولم تتمكن من إرسالها إلى فرنسا.

أما الطائرات الألمانية، فكانت تفوق الطائرات الفرنسية بالعدد والقوة، أما القوة الجوية البريطانية العاملة في فرنسا فكانت تضم عشرة أسراب من طائرات «الهاريكين»، التي تمكنا من الاستغناء عنها، بالإضافة إلى تسعة عشر سربًا من أنواع مختلفة أخرى، أما طائرات الانقضاض، هذا النوع الجديد من الطائرات الذي بدأ في الظهور منذ غزو بولندا، فلم تكن فرنسا أو بريطانيا قد أنتجته بعد، وقد أثرت هذه الأنواع من الطائرات على كتائب المشاة الفرنسيين وحطمت من معنوياتهم بشكل كبير.

❖ ❖ ❖

بدأ الهجوم الألماني ليلة التاسع ـ العاشر من شهر آيار عام ١٩٤٠، وقد سبق هذا الهجوم، غارات جوية على المطارات وطرق المواصلات والمنشآت العسكرية، وبدأ الهجوم عبر حدود بلجيكا وهولندا واللوكسمبورغ، وتمكن الألمان من مباغتتهم في كل مكان، وكان جنود العاصفة وهم يحملون المدافع الخفيفة، ينطلقون من جميع الجهات ليشعلوا الجبهة بالنيران .. وعندما بدأ الزحف الكبير على هولندا وبلجيكا صرختا تطلبان النجدة، أما الهولنديون فقد أركنوا إلى خطهم المائي وفتحوا جميع الثغرات التي لم يتمكن الألمان من الاستيلاء عليها، كما راح حرس الحدود يقاومون الغزاة، إلا أن الألمان كانوا قد اخترقوا الجبهة على عدة مواضع وأقاموا الجسور واستولوا على فتحاتها والمفاتيح التي تضبطها، بينما راحت الطائرات المغيرة تضرب بقوة، وأصبحت مدينة روتردام بعد ليلة واحدة كتلة من الأنقاض، كذلك لاهاي وأوترخت وأمستردام ...

وفي الرابع عشر من أيار، بدأت الأخبار السيئة تصلنا عن اختراق الألمان للجبهة في سيدان، ولم يتمكن الفرنسيون من الوقوف في وجه الجيش الألماني، ومقاومة الدبابات

وطائرات الانقضاض الهائلة ، وقد وصلتنا إلى مجلس الوزراء رسالة من المسيو رينو ، يطلب فيها إرسال عشرة أسراب من الطائرات لمساعدته في إعادة تنظيم الخطوط ، كما وصلت رسائل أخرى إلى رؤساء الأركان تشرح الموقف وتقول أن الجنرالين غاملان وجورج يعتبران الوضع خطيرًا جدًا، وقد ذهل الجنرال غاملان من سرعة الزحف الألماني ، وفي جميع الأماكن التي اشتبكت فيها الجيوش كانت قوة الهجوم لألماني تسيطر على الموقف في الحال ، أما الطائرات البريطانية فقد قاتلت ببسالة وقوة وحطمت الجسور الرئيسية في سيدان، إلا أن الخسائر التي تعرضت لها الطائرات البريطانية كانت كثيرة إلى حد مخيف ، فمثلاً خسرنا في يوم واحد حوالي سبع وستين طائرة أنزلتها المدفعية الألمانية المضادة للطائرات ، كما أنا أسقطنا حوالي ثلاث وخمسين طائرة ألمانية، ولم يبق لدينا في ذلك اليوم سوى ٢٠٦ طائرة من أصل ٤٧٤ طائرة في فرنسا ... واتضح لنا أن الاستمرار على هذه الحال سيؤدي إلى نهاية القوة الجوية البريطانية ، وكان السؤال الآن ، ماذا في وسعنا أن نرسل من طائرات إلى فرنسا دون أن نترك بلادنا بلا دفاع ، وكانت نداءات فرنسا الملحة، ورغبتنا في القيام بالتزاماتنا تدفعنا إلى إرسال المزيد ، إلا أننا سنصل إلى حد لا يمكننا تجاوزه لأنه سيكلفنا بذلك حياتنا .

وبحثت وزارة الحرب ، التي كانت تجتمع كل يوم ، هذا الوضع المخيف ، وكان ماريشال الجو داودينغ قد أعلمني أن باستطاعتنا الدفاع عن وطننا بخمسة وعشرين سربًا مقاتلاً من الطائرات، حتى لو هاجمنا السلاح الجوي الألماني كله ، أما إذا انخفض هذا العدد، فلا يمكننا الدفاع بعد ذلك، وكانت الهزيمة لا تعني فقط تدمير مطاراتنا وقوتنا الجوية ، بل تعني تدمير مصانع إنتاج الطائرات الذي يتوقف عليها مستقبل بلادنا كله ....

وفي الساعة السابعة والنصف صباحًا من يوم الخميس في الخامس عشر من شهر أيار وصلتني مخابرة هاتفية إلى المنزل وأنا في فراشي من المسيو رينو ، وكان يتكلم بالإنكليزية ، والاضطراب باديًا على صوته وهو يقول : «لقد هزمنا ، لقد خسرنا المعركة » فقلت له : « لا يمكن أن تهزموا بهذه السرعة !! » فأجاب : « لقد تحطمت الجبهة عند سيدان ، وهم الآن يتقدمون بالدبابات والآليات المدرعة » ، وأجبته على الفور بأني سآتي إلى فرنسا للتحدث معه.

لقد استطاع الألمان أن يقتحموا الجبهة، واندفعت قوات كبيرة بعد أن اضمحل الجيش الفرنسي التاسع، وفي السادس عشر منه توغلت القوات الألمانية ستين ميلاً وراء الجبهة، كما انتهى القتال في ذلك اليوم أيضًا، في هولندا بعد أن استسلمت القيادة العليا ...

في الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم نفسه، توجهت إلى فرنسا ومعي الجنرال ديل، نائب رئيس أركان حرب الإمبراطورية والجنرال إيسماي، ووصلنا بعد ساعة إلى مطار «لابورجيه»، وظهر لي الوضع أسوأ بكثير مما كنت أعتقده، وقد قال الضباط الذين كانوا في استقبالنا أن الألمان سيصلون باريس خلال أيام معدودة، وهذا على أكثر تقدير، وتوجهت إلى سفارتنا وبعد أن استمعت إلى الأخبار، توجهت إلى الكي دورسيه، ودخلت إلى الغرفة حيث كان بانتظارنا رينو ووزير الدفاع ديلاديبه والجنرال غاملان، وكان الجميع وقوفًا، ولاحظت على وجوههم دلائل التعب والاضطراب، ورأيت أمامهم خريطة قد رسم عليها بخط أسود جبهة الحلفاء، وقد أحدثت فيها ثغرة صغيرة مشؤومة عند سيدان.

وأوضح القائد باختصار تفاصيل ما حدث، فقد اخترق الألمان الجبهة إلى الشمال والجنوب من سيدان على بعد ستين ميلاً، وقد تمزق الجيش أمامهم وتحطم شر تحطيم، وبدأت السيارات تتجه بسرعة هائلة نحو أميان وأراس، معتزمة الوصول إلى البحر عند إبيغيل أو قربها، وربما غيرت هذه القوات وجهة سيرها، وتحولت نحو باريس، وقال: إن القوات المدرعة البالغة ثماني فرق تزحف وراء السيارات وتوسع في أجنحتها أثناء تقدمها بعد أن شطرت الجيش الفرنسي وفصلت بينه تمامًا، وقد استمر الجنرال يحدثنا عن الوضع حوالي خمس دقائق، وبعد أن أنهى حديثه ساد الوجوم والصمت لفترة طويلة، ثم سألته: «أين القوة الاحتياطية وأين قوات المناورات؟»، وأجابني غاملان وهو يهز برأسه: «لا يوجد عندنا قوات احتياط أو قوات مناورة...».

وساد الصمت فترة أخرى، وارتفع الدخان في الحدائق من المشاعل ورأيت الموظفين يحملون الوثائق والمستندات الهامة ويضرمون فيها النيران، استعدادًا للجلاء عن باريس.

وعلى الرغم من أن للتجارب الماضية ميزات عديدة، إلا أنها تنقص نقصًا هامًا هو في كون الأمور لا تتكرر على نفس الصورة مرتين، ولولا ذلك لكانت الحياة تسير بسهولة كبيرة، وفي السابق تحطمت جبهاتنا وتمكن العدو من اختراقها، لكننا كنا دائمًا نتمكن من

وصل الأشياء ببعضها ونخفف من حدة الهجوم ، أما الآن فالتجربة كانت مختلفة ، فقد انقطعت طرق المواصلات، وتم الاستيلاء على الريف القائم وراء الجبهة باندفاع هائل من المسيارات المدرعة ، ولم يكن باستطاعتنا المقاومة لعدم وجود احتياطي إستراتيجي لدى الفرنسيين ... لقد أجابوني بأنه ليس لديهم احتياطي، وقد أذهلني جوابهم هذا، إذ كيف يمكننا اعتبار هذا الجيش الفرنسي الكبير بعد الآن ؟ ولم أستطع أن أتصور أن قائدًا يعهد إليه مهمة الدفاع عن جبهة تقدر مساحتها بخمسمائة ميل، ويبقى عاجزًا عن المناورة ، إذ لا يمكن لأي قائد أن يدافع عن جبهة واسعة كالجبهة الفرنسية ، خاصة بعد أن يندفع العدو بهذه القوة الهائلة ويخترق الجبهة ، لذلك يتوجب على القائد أن يطلق فرقة الاحتياطية لمهاجمة العدو في نفس اللحظة التي تكون حدة هجوم العدو قد خفتت .

إذن لماذا أقامت فرنسا خط ماجينو هذا ؟ فهو بلا شك قد وفر استخدام قوات كبيرة من الجيش، وبنفس الوقت خلق مراكز اندفاعية ، باستطاعة الجيش أن يستخدمها أثناء هجومه المعاكس بالإضافة إلى استخدامه لتلك المراكز لحشد قوات إضافية تساعد الجيش عند الضرورة ، وهذه هي الطريقة الوحيدة لمواجهة مثل هذا الموقف ، ولكنهم يقولون: إنه ليس عندهم احتياطي ، وهنا لابد أن أعترف أن قولهم هذا كان أكبر مفاجأة تلقيتها في حياتي، فلماذا لم يعرفوني بهذا الأمر من قبل ، حتى ولو كنت منهمكًا في أعمالي في الأميرالية ؟ بل لماذا لم تعرف الحكومة البريطانية بهذا الأمر من قبل ، وخاصة وزارة الحربية ؟ ولا أعتقد أن القيادة الفرنسية ما كانت لتكشف لنا عن هذا الضعف أو عن طريقة توزيع قواتها ، فهذا العذر هو أقبح من الذنب ، إذ إنه من حقنا أن نعرف، فالجيشان يخوضان معركة حياة أو موت في الجبهة ... وعدت إلى النافذة لأراقب ألسنة اللهب تلتهم الوثائق والمستندات الخاصة بالجمهورية الفرنسية . وكانوا لا يزالون يقذفون بمزيد من المستندات إلى النيران المتأججة ...

وعاد الجنرال غاملان إلى الحديث مرة أخرى ، ويقول: إذا لم يكن من الضروري إعادة جمع القوات المشتتة لتضرب القوات الغازية ، وقال: إن هناك ثماني فرق أو تسع يمكننا سحبها من المراكز الهادئة في الجبهة عند خط ماجينو ، كما أن هناك ثلاث فرق مدرعة لم تشترك بعد في المعركة ، بالإضافة إلى ثماني أو تسع فرق ستصل في طريقها من إفريقيا خلال أسبوعين ، وفي هذه الحالة سيجتاز الألمان طريقهم عبر ممرين جبهتين فيمكن شن الغارات

المعاكسة عليهم ، ولن يتمكن الألمان من الصمود نتيجة ضغط الجبهتين عليهم ...

ومع أن أقوال الجنرال غاملان كانت منطقية ومعقولة ، إلا أنني شعرت بأن بقية الرجال لا يصدقون ما يقوله ، وسألت الجنرال غاملان عن الموعد الذي سيحدده للهجوم ، وعن الطريقة التي سيتبعها في هجومه ، وكان رده : «أننا أقل منهم عددًا وعدة ، وأضعف منهم في أساليب الحرب... » وبعد ذلك اكتفى بأن هز كتفيه ، ولم نتكلم بعد ذلك ، إذ لم يكن من ضرورة لذلك ... ثم أين تقف بريطانيا إزاء هذا الوضع ، بإسهامها الضعيف الذي لا يتعدى العشر فرق والتي لا يوجد بينها فرقة واحدة من الدبابات الحديثة ، وذلك بعد مضي ثمانية أشهر من إعلان الحرب ؟؟

❖ ❖ ❖

وفي الصباح، قبل أن أغادر المكان ، وصلني التفويض من مجلس الوزراء في لندن لنقل أربعة أسراب من الطائرات المقاتلة إلى فرنسا ، ورجعت إلى السفارة لأطلب إرسال ستة أسراب أخرى، تاركًا خمسة وعشرين سربًا فقط للدفاع عن الجزر البريطانية كلها ، وهذا هو الحد النهائي، وجاءتني الموافقة في المساء ، فتوجهت لتوي إلى منزل المسيو رينو وأبلغته النبأ ، كما طلبت منه استدعاء المسيو ديلاديه ليسمع النبأ المفرح ، الذي بدا لي أنه سيرفع من معنويات أصدقائنا الفرنسيين ، وعندما سمع المسيو ديلاديه بالخبر لم ينبس بكلمة واحدة ، واكتفى بأن قفز من مكانه وأمسك بيدي وعصرها وأمارات الفرح ترتسم على وجهه ... وفي صباح اليوم التالي عدت إلى لندن، وقد أخبرت أصدقاءنا الفرنسيين ، قبل أن أغادر باريس ، أنهم ما لم يبذلوا جهدًا فائقًا فإن مغامرتنا الكبرى في إرسال تلك الأسراب من الطائرات تصبح دون فائدة ، وقد قيل لي: إن خسائر العدو كانت أكبر من خسائرنا بخمسة أضعاف ، كما قيل لي أن فرنسا فقدت معظم طائراتها ...وخيل للجنرال غاملان أن الوضع قد أصبح منتهيًا ، وقد أخبروني بعد ذلك أنه أعلن بأنه لن يتمكن من الصمود أكثر من يوم واحد فقط ، وأن باريس ستسقط بين ليلة وضحاها !! وفي نفس اليوم الذي وصلت فيه لندن ، وصلتني الأخبار أن الألمان دخلوا بروكسل وفي اليوم التالي دخلوا كامبرية ثم اجتازوا سان كانتان ، بينما كانت القوات الحليفة تتراجع منسحبة ...

وفي منتصف ليل الثامن عشر ـ التاسع عشر ، قام الجنرال بيلوتي بزيارة اللورد غوت في

القيادة العليا، ولم تكن شخصية هذا القائد تبعث على الارتياح والثقة، ومنذ تلك اللحظة بدأت فكرة الانسحاب إلى الشاطئ تراود مخيلة قائد الإعلام البريطاني، وقد أبرق إلينا يقول أن الوضع في فرنسا قد تغير ولم تعد المسألة مسألة خرق لخط الدفاع، بل أصبح الوضع يشكل صورة القلعة المحاصرة والمهددة بالسقوط.

❖ ❖ ❖

وبدأ المسيو رينو بتغيير أعضاء وزارته وقيادته العليا، وعين الماريشال بيتان نائبًا لرئيس الوزراء، ونقل المسيو ديلاديبه إلى وزراء الخارجية وأخذ عنه مهام وزارة الدفاع والحربية واحتفظ بها لنفسه، كما عين الجنرال ويغان قائدًا أعلى بدلاً من الجنرال غاملان.

كان آخر أمر أصدره الجنرال غاملان هو أن تشق الجيوش الشمالية طريقها إلى الجنوب إلى نهر السوم مهما كلفها الأمر، وأن تهاجم مدرعات العدو التي قطعت طرق مواصلاتنا، وفي نفس الوقت يترتب على الجيش الثاني والجيش السادس أن يخترقا الصفوف باتجاه الشمال نحو ميزيير، وقد أعجبت بهذه القرارات المتخذة، فقد كانت قرارات صائبة جدًا.

وقد أثار اضطراب القيادة الشمالية، وهزيمة الجيش الفرنسي الأول وغموض الموقف العام، أثار القلق في نفوسنا، وبقيت في نفس الوقت جميع الإجراءات التي اتخذناها هادئة مرنة وجاءتنا رسالة من اللورد غورت تقول أنه يدرس إمكانية انسحاب جيوشنا إلى دنكرك، بحال اضطر إلى ذلك... ولم يكن باستطاعة رئيس الأركان الموافقة على مثل هذا الاقتراح الذي لم نكن نحن أيضًا نوافق عليه، فبعثنا برسالة إلى اللورد غورت، نعلمه بها بوجوب الاتجاه بالقوات البريطانية نحو الجنوب الغربي لتنضم إلى القوات الفرنسية في الجنوب، وفي نفس الوقت يحث البلجيكيين على العمل بنفس الخطة، وإذا لم يوافقوا عليه أن يخبرهم عن استعدادنا لإجلاء أكبر عدد ممكن من القوات من موانئ المانش، وقررنا في نفس الجلسة أن نرسل الجنرال ديل إلى مقر قيادة الجنرال جورج، الذي كنا على اتصال تلفوني دائم معه، بينما كانت اتصالاتنا مع اللورد غورت متقطعة وصعبة، وقد وصلتنا الأخبار بأن الذخيرة والمؤن لم تعد تكفي إلا لمدة أربعة أيام فقط.

وفي العشرين من أيار، بعد أن درسنا وضع جيشنا من جديد، قررنا بالجلسة الخاصة ما يلي: «يتوجب على الأميرالية أن تقوم بحشد أكبر عدد ممكن من السفن الصغيرة، وذلك

كإجراء احتياطي ، لنكون على استعداد للإبحار إلى الموانئ القائمة على طول الساحل الفرنسي » ، وفي نفس اليوم عقد المؤتمر الأول لجميع من يعينهم الأمر لدرس قضية الجلاء الطارئ عبر القناة لقوات كبيرة جدًا ، كما وضعت الخطة لإجلاء عشرة آلاف رجل عن موانئ كاليه وبولون ودنكرك ، كل أربع وعشرين ساعة ، وقد أسميت هذه الخطة «عملية دينامو» التي برهنت على أنها الطريقة الوحيدة التي أنقذت الجيش بعد عشرة أيام .

❖ ❖ ❖

وفي ليلة العشرين من الشهر نفسه دخل الألمان مدينة إبيفبل ، بعد أن قطعت طرق مواصلات الجيوش الشمالية ، وأصبح اتجاه قواتهم واضحًا الآن وكانت الفرق الآلية والمدرعات تتدفق كالسيل الجارف دون أن تلقى أية مقاومة من الفرنسيين ، وكانت تتقدم مجتازة المدن والقرى بمعدل ثلاثين أو أربعين ميلاً في اليوم الواحد ، وكان الضباط الألمان ينظرون إلى السكان ويبتسمون بسخرية وهم يلوحون لهم بأيديهم ، وتتحدث الأخبار أن جماعات من الأسرى الفرنسيين كانت تسير معهم والبنادق لا تزال في أيديهم ، وكان الألمان يجمعونها بين الفترة والأخرى ويحطمونها تحت الدبابات ... وقد أذهلني هذا الفشل في الوقوف أمام هجمات المدرعات الألمانية التي تمكنت من تحطيم جيوش قوية بكاملها ، كما أذهلني الانهيار السريع في المقاومة الفرنسية بعد أن تمكن الألمان من اختراق الجبهة ، فقد كانت القوات الألمانية تسير على الطرقات الفرنسية الرئيسية بحرية تامة ، ولم يبد أن أي طريق قد أغلق في وجه الأعداء ولو في نقطة واحدة تدل على شيء من المقاومة ...

❖ ❖ ❖